القويُّ يأكل الضعيف

او الحق للقوة

اظهر ما في هذا الكون من الآيات بين الاحياء آية سُطِّرت في اديم الارض ورحاب الفضاء — وهي ان القويَّ يأكل الضعيف . وعلى هذه الآية بنى علماء البيولوجيا والطبيعة اقوالهم وشروحهم في تفسير قواعد الحياة ومنها اشتقوا قولهم "الانتخاب الطبيعي وبقاء الاصلح" اي ان القويَّ يبيد الضعيف ويرث الارض بعدهُ إما بالاعتداء عليهِ مباشرة كما تفعل الضواري من الحيوان وكما كان الانسان يفعل في عهد همجيتهِ وإما بالاعتداء عليهِ بواسطة وتلك الواسطة هي الطبيعة بما فيها من حرّ وبرد وجوع وعري ومرض . فان هذه العوامل كلها تساعد القوي على الضعيف او تقرض الضعيف من امام القوي فالصحيح والغني اصلح للبقاء وابعد عن الفناء من السقيم والفقير . وغالى اهل السياسة في هذا المذهب قولاً لما رأوا شدة تمكنهِ بين الامم فعلاً وانهُ هو المبدأ السائد للناس في معاملاتهم بعضهم لبعض فوضعوا قاعدتهم المشهورة وهي "الحق للقوة"

وتاريخ الانسان من بدء ظهورهِ على هذه الارض الى عهدنا الحاضر شاهد على ان هذا المبدأ لم يتغير بتغير احوال الناس في معايشهم وارتقائهم من حال البداوة والهمجية الى حال الحضارة والمدنية . فقد كانت طوائف البشر فيما مضى كطوائف الحيوان في كل زمان ومكان — يبتلع القوي الضعيف ويهضم حقوقهُ . ولم يكن لها دأب سوى شن الغارات بعضها على بعض لجرّ مغنم او اخذ ثار وما اشبه . وهذا ما لا يزال يجري الى الآن ولكن على شكل آخر وفي زي آخر اي ان الدولة الفلانية تغتصب وتسمي اغتصابها استرداد حق مفقود وتعتدي وتسمي اعتداءها دفع اهانة او تعويض شرف او اتقاء شر . وقاعدة "الحق للقوة" من موضوعات القرن التاسع عشر قرن العلم والنور والعمران . وليست هذه باول مرة ظهرت الذئاب فيها بجلود الحملان

واذا كان الانسان طاغياً سلاباً نهاباً لاخيهِ فلهُ اسوة بسائر الحيوان ولا لوم عليهِ في ذلك ما دامت الاثرة سنة طبيعية عامة وانما يلام لان لهُ ميزة على سائر الحيوان بشيء هو النفس او الروح او العقل مهما شئت سمهِ وحقنا ان نقول

لولا العقولُ لكان ادنى ضيغمٍ ادنى الى شرف من الانسانِ

والحيوان يعتدي بعضهُ على بعض ويفترس بعضهُ بعضاً بطرق شتى واساليب مختلفة . فمن

السمك نوع يسمى الرامي تشبيهًا لهُ برامي السهم عن القوس او البصّاق وانما سمي كذلك لانهُ اذا رأى حشرة على نبتة نبتت قرب الشاطئ دنا منها الى اقرب ما يمكنهُ ثم ملأ فاهُ ماء وقذف بهِ على الحشرة فتسقط في الماء فيلتهمها . وهو يصيب غرضهُ وقلما يخطئهُ ويكثر وجودهُ في انهار جزائر الهند الشرقية واهل جاوى وما جاورها يصيدونهُ من الانهار ويحفظونهُ في بركهم للعب والتسلية وذلك انهم يلتقطون لهُ الذباب ويدنونهُ منهُ فيقذف عليهِ الماء من فيهِ حتى يقع في البركة فيلتقمهُ

ومن الحيوان ما يصطاد فريستهُ بكمونهِ لها حيث يرى ولا يُرى لعملهِ بالسليقة ان منها ما هو شديد الحذر والتوقي على نفسهِ كالتمساح فانهُ يتربص لفريستهِ في الماء او بين الاعشاب اياماً لا يبدي حراكاً كأنهُ ميت حتى تمرّ من امامهِ فينقضُّ عليها كالبرق الخاطف . ومن الافاعي نوع يتعلق بالاشجار من ذنبهِ متدليًا ويبقى كذلك لا يتحرك حتى يعسر التمييز بينهُ وبين الغصون التي حولهُ . فاذا مرّت فريستهُ تحت الشجرة القى بنفسهِ عليها . وهكذا يفعل بعض انواع العلق في حراج افريقية فانهُ يعلق بغصون الاشجار حتى اذا مرّ انسان او دابة تحتهُ سقط عليهما ليمتص دمهما

ومنها النسر ملك الكواسر . وصف بعضهم صيد بعض انواعهِ لفريستهِ نثرًا بمثل ما وصف المتنبي الاسد ملك الوحوش شعرًا من قصيدتهِ في بدر بن عمار فقال : يحلق ملك الكواسر في الجوّ ثم ينقض فجأةً على شجرة بجانب نهر يرصد فريستهُ منها بعين تقدح شررًا وتتبين الاشباح بجلاء ولو كانت على حدود الافق واذن تكاد تسمع دبيب النمل في قراهُ . وتراهُ آونة بعد اخرى ينظر الى اسفل خشية ان لا يطرق مسمعهُ وئيد الظبية وخشفها . وتجثم انثاهُ على شجرة في الضفة المقابلة وتصيح فيهِ حينًا بعد حين كأنها توصيهِ بالصبر وتحثهُ على السهر فينشر جناحيهِ ثم يطويهما وينحني الى الامام ويردُّ عليها بصراخ كأنهُ قهقهة الضاحك او عربدة الشارب الثمل ويعود فيستوي في مجثمهِ كالملك على عرشهِ . فتمرُّ من تحتهِ اسراب البط تباعًا سراعًا ترد الماء فلا يرمقها بنظرة كبرًا وترفعًا

وفيما هو على تلك الحال يطرق اذنهُ واذن انثاهُ صوت اوزة عن بعد فتصيح الانثى صيحة شديدة وتأخذهُ هزة فينتفض كأن قد بللهُ القطر ويتحفز للانقضاض على فريستهِ حتى اذا مرّت امامهُ جمع نفسهُ في زورهِ وانبعث من مكمنهِ انبعاث السهم عن قوسهِ او الشهاب الثاقب من فلكهِ وهو يصعق صعقات قوية تصيب اذن الاوزة فتقع عليها وقع الصاعقة وتحاول الفرار منهُ ولكن اين المفرّ وسلطان الطير هو الطالب . فتحاول القاء نفسها في الماء

فيمنعها من ذلك بان ينازلها من اسفل فيضطرها الى البقاء طائرة حتى تقع غنيمة بين براثنه

ومن السمك نوع يصيد فرائسهُ بالحيلة فان لهُ شبه عرف معلقاً بانفهِ فيدفن نفسهُ في الوحل ويبقي العرف فوق الماء فاذا رأت صغار السمك العرف اجتمعت حولهُ ظنًّا ان هناك غنيمة باردة فيفتح فاهُ بغتة فتنحدر الى جوفهِ وهو لم يحرّك لصيدها ساكنًا

ومن الحشرات ما يحفر في الارض حفرة مستديرة جوانبها من التراب والرمل الناعم فاذا مرَّت حشرة اخرى بها هوت الى اسفل فاصطيدت

والعناكب تقتنص صيدها بشباك تحوكها فمنها ما يقف لفريستهِ بالمرصاد وسط شبكتهِ ومنها ما يختبئ قرب الشبكة في ثقب من الحائط فاذا وقعت الفريسة في الشبكة المنصوبة جعلت العنكبوتة تغزل الخيوط وتلفها حولها لتمنعها من الهرب . ومن هذه العناكب عنكبوتة في مدغسكر حيَّرت علماء الحيوان مدة طويلة فان في وسط الشبكة التي تحوكها خيطًا غليظًا لم يهتدوا الى فائدتهِ مع طول المراقبة ولم يروها تستخدمهُ لغرض من الاغراض . والغريب انهُ اذا أُزيل اسرعت فغزلت خيطًا آخر غيرهُ . واتفق انهُ بينما كان احد العلماء يراقب عنكبوتة من هذه العناكب رأى جندبًا كبيرًا قد وثب الى وسط الشبكة وما كاد يفعل حتى وثبت العنكبوتة خلفهُ باسرع من لمح البصر وشدَّت وثاقهُ بالخيط الكبير لان الخيوط الصغيرة لا تكفي لذلك

ومن الحيوانات حيوان يسمّى آكل النمل وطريقة صيدهِ لها هي انهُ يبسط لسانهُ الطويل على الارض وكل نملة تمرُّ عليهِ تلصق بهِ لوجود مادة لزجة عليهِ فاذا اجتمع منها لقمة سائغة ازدردها هنيئًا مريئًا . وكثيرًا ما يغرز لسانهُ في قرية للنمل ثم يخرجهُ منها محملاً صيدًا

ومن الحيوانات ما يصطاد جماعات كالكلاب البرية والذئاب والثعالب . روى بعضهم ان الكلاب البرية تجري خلف فريستها وهي تسابق الرياح وتستحثُّ بعضها بعضًا بالنباح حتى تخور قوة الفريسة رعبًا وتعبًا . واذا طاردت حيوانًا لم ينقذهُ منها سرعة جريهِ ولا خفة حركتهِ ولا قوة عضلهِ ولا شدة بطشهِ . فالغزال والنمر والدب والاسد عندها شرعٌ . تتبع الفهد الهندي عن كثب وتهجم عليهِ فتثخن فيها جرحًا وقتلاً فلا يثنيها ذلك عنهُ بل لا تزال بهِ حتى تنال مأربها منهُ

ومثل الكلاب البرية الذئاب فان شراستها مشهورة ولاسيما اذا دهمها الجوع . ففي الحرب تسير في اثر الجيوش فتستفرد المتخلفين من الجنود وتلتهم القتلى . او تهاجم المسافرين زرافات او تجتمع زوجين زوجين وتأخذ صيدها بالحيلة . فاذا عثر الزوجان منها بقطيع من الماشية

حسبا للكلب الذي يحرس القطيع كلّ حساب علمًا منهما بشدة سهره وقوة دفاعه ودقة شمّه فيحاولان خداعهُ بالطريقة الآتية وهي انهما يدنوان من القطيع مسترقين الخطى ثم يظهر احدهما امام الكلب ويخبئ الآخر منهُ فيهجم الكلب على الذئب الذي يراهُ فيهرب هذا امامهُ والكلب في اثره فيغتنم الذئب الآخر الفرصة ويهجم على القطيع فيخطف منهُ شاة ويفرّ الى حيث يقتسمها هو وشريكهُ

ومن الطير ما يعيش على صيد غيره فاذا رأى طائرًا صاد شيئًا جدّ وراءهُ حتى يدركهُ فيوسعهُ نقرًا بمنقاره او يترك صيدهُ فيتلقفهُ اذ ذاك غانمًا ويعود الآخر خاسرًا

وزبدة القول ان هذا الكون اشبه بميدان يصول فيهِ الاحياء ويجولون ويتجالدون ويتطاعنون ويتسابقون تسابق خيل الطراد فلا يسبق الاَّ الجواد ولا يسلم الاَّ البطل او شديد الحيلة كثير الدهاء

المعالجة الحديثة (١)

ما زال الطب يجري مع الايام في مقدمة العلوم حتى وصل الى حالتهِ الحاضرة وقد اصبح مطلب العلماء وملجأ اليائسين وهو الآن كما كان قبل سريع السير كثير التقلب بعيد المرمى شريف الغاية يتناول من الحقائق جوهرها ويبني عليهِ اعمالهُ العجيبة فهو صناعة دقيقة لا يمكن النجاح فيها الاَّ بعد عناء طويل ودرس كثير وعمل دائم وحسبنا شاهدًا على ما نقدم بذل العلماء نفوسهم في خدمتهِ. ومعلوم ان الطب في استخدامهِ الطبيعة لشفاء المرضى لا يستخدم بعض انواع المواد فقط بل كل ما يصل اليهِ فهو يستخلص الدواء اللازم من المعدن والنبات والحيوان والمصل والحرارة والنور والكهربائية واشعة رنتجن واشعة فنسن واشعة الراديوم وهلمَّ جرًّا الى ما لا نهاية لهُ. على انني لضيق المقام سأحصر بحثي في ثلاثة انواع من طرق المعالجة: وهي اولاً المعالجة بالمصل. وثانيًا المعالجة ببعض اعضاء الحيوان وثالثًا المعالجة بالاشعة المختلفة

اما المعالجة بالمصل فقد مهد لها السبيل الدكتور كوخ باكتشافهِ مكروب السل ففتح بابًا جديدًا للبحث اتجهت اليهِ الابصار ودخلهُ كثيرٌ من العلماء بآلاتهم المكبرة ليروا ما خفي عليهم منذ اجيال عديدة وهو ذلك المكروب الصغير الذي كان ولم يزل سبب اكثر الامراض فدرسوا عنهُ ما استطاعوا وعرفوا شيئًا مهمًّا عن ماهيتهِ وانواعهِ وكيفية تشوئهِ وتوليدهِ. واتضح لهم انهُ كلما دخل جسماً أوجد فيهِ سمًّا قتالاً واضطر الجسم ان يفرز من المواد اللازمة ما يضاد

(١) خطبة للدكتور توفيق بشارة كنعان احد المتمهين من القسم الطبي خطبها في احتفال كلية بيروت